

المحاضرة الخامسة عشرة : الاتساق والانسجام في القرآن الكريم

يعد الاتساق والانسجام من أبرز الخصائص التي تمنح النص تماسكه وقيّمته الدلالية، ولا يقتصر حضورها على النصوص الأدبية فحسب، بل يتجلّيان بأسمى صورها في القرآن الكريم، إذ تتألف ألفاظه وتترابط آياته وسوره ترابطاً محكماً يكشف عن نظام دقيق في البناء والمعنى، فالقرآن ليس مجرد آيات متتابعة ، بل هو نسيج متكامل تتحقق فيه وحدة الموضوع ، وتسلسل الأفكار ، والتناسب بين الألفاظ والدلالات ، مما يجعله نموذجاً أعلى للاتساق اللغوي والانسجام الدلالي.

الخصائص البيانية واللغوية للقرآن الكريم :

وتتمثل هذه الخصائص في:¹

- 1 - القرآن الكريم منهج رباني متكامل، عقيدة وشريعة، وأخلاقاً وسلوكاً، ومنهجاً وتصوراً، وعِلماً ومعرفة، ودينًا ودنيا . فهو كلام الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو نسيج وحده.
- 2 - إن العلوم اللغوية في الثقافة العربية الإسلامية لا يمكن فصلها عن الرؤية العقدية الإسلامية، ومن ثم فإن هذه العلوم نشأت لخدمة الإنسان شأنها شأن كل العلوم، بل شأن الدين نفسه.
- 3 - إن مصطلحي الخطاب والنص مصطلحان متداولان في الثقافة العربية الإسلامية، ومتصلان بحقول معرفية متعددة كعلوم القرآن والتفسير، والحديث وأصول الدين، والفقه وأصوله، واللغة وعلومها . و تكتسب العلاقات الإسنادية أهمية خاصة في تشكيل الخطاب . فلا يكون النص نصاً، ولا الخطاب خطاباً، ما لم يكن متسقاً ومنسجماً، بحيث يشكل منظومة متكاملة ، مكونة من بنيات وعناصر تربط بينها آليات الربط الشكلية والدلالية.
- 4- يمتاز القرآن الكريم بكونه نصاً وخطاباً إلهياً مطلقاً غير قابل للمحاكاة، وله ترتيبان ترتيب التلاوة وترتيب النزول، وموافق للنظام العام الذي يحكم اللغة العربية. كما أنه يعدل عن معهود العرب في الكلام، ومن ثم فهو بناء فكري ولغوي محكم ومتفرد. فالقرآن الكريم خطاب ملفوظ، ونص مكتوب، تتحقق فيه مكونات العملية التواصلية وشروطها :
 - أ. المرسل.
 - ب. المتلقي.
 - ت. الخطاب ذاته.
 - ث. الحضور أي : حضور صاحب النص قراءة وكتابة، فحيثما قرئ القرآن أو تلى فثم وجه الله . مما يجعل القرآن الكريم

- جلال الدين السويطي، الاتقان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ط2، 1-

يستبطن كل المقامات الممكنة. كما أنه يمتاز عن معهود النصوص والخطابات البشرية بكون مقاله سابقا لمقامه، فالله تعالى أنشأه ابتداء.

5- إن القرآن الكريم ليس مشرعا أمام مطلق القراءات، لذلك فهو لا يحتمل من القراءات إلا ما كان محققا لمقصد الوقوف على مضمون الرسالة أي على مراد الله تعالى من الخطاب القرآني. ومن ثم فإن القراءة الموافقة للخطاب القرآني، والموصلة إلى مراد الله تعالى هي القراءة المقاصدية، التي تتوفر فيها أسس التلقي الإيجابي، والمراعية لخصوصيات القرآن الكريم، والتي تظل نسبية محدودة في الزمان والمكان باعتبارها مجهودا بشريا .

6- يقوم البناء الصوتي للقرآن الكريم على الإظهار باعتباره الأصل المحقق للتواصل وجمالية التعبير بالظهور. أما الإدغام فهو عارض يهدف إلى اقتصاد المجهود، وتحقيق الانسجام الصوتي ووضوح المعنى . وللإدغام وظيفة صرفية لأنه يعنى ببنية الكلمة بشكل جزئي، كما أن له وظيفة تركيبية ودلالية، و يعمل على تحقيق الانسجام بين الأصوات. مما يبين تعالق المستويات اللغوية، وأن الفصل بينها ليس حقيقة لغوية، بقدر ما تلجئ إليه الإكراهات التعليمية والعلمية .

7- يفرض الانسجام الصوتي تحقيق توازنات صوتية في مواقف تعبيرية معينة، مع تحقيق مبدأ اقتصاد المجهود ، والتأثير في المتلقي ببراعة وروعة الجرس الموسيقي الذي يتحقق بالأصل وما يطرأ عليه من عوارض تمشيا مع الموقف والمقام، رغبة ورهبة ، وبيانا وهداية.

8- يقوم الإيقاع الوزني بوظيفة الاتساق، المتمثل في الربط بين مكونات النص/ الخطاب القرآني، وبوظيفة الانسجام بما يشيعه من توازن صوتي . تام وغير تام . يسهم في تشكيل الإيقاع القرآني ، مع مناسبة الإيقاع للمقام و السياق. وقد وظف البيان القرآني آليات متعددة لتحقيق التوازنات الصوتية، كالتكرير والتوقع، والإضافة والفاصلة، والحركات والإتباع، والتقديم والتأخير، والحذف والجناس والطباق.

9- استخدم البيان القرآني المكون الصرفي لتحقيق الاتساق والانسجام بين مكوناته، لجعل من القرآن الكريم منظومة متكاملة، لا يمكن فهم إحدى جزئياته إلا في إطاره الكلي ، و مما تجدر الإشارة إليه وجود علاقة تكامل بين الصيغة والسياق والمقام في الدلالة على زمن الفعل. كما أن الصيغ تم اختيارها بدقة متناهية لتناسب السياق والمقام، وتحقيق الإيجاز، وجمالية العرض، فضلا عن الربط المحكم بين مكونات الخطاب القرآني.

10- إن الفعل القرآني مستقبلي وأبدي معجز، حيث يدل على الزمن المطلق، فالماضي يستعمل للدلالة على المستقبل الذي لم يحدث بعد، كالأفعال التي تحدث بصيغة الماضي عن مشاهد يوم القيامة.

11- عندما يتحدث الخطاب القرآني عن أمر فيه شدة وقوة، أو بعضه أشد من الآخر، فإن الأمر الشديد أو الأشد يأتي بصيغة التذكير. وهناك أبعاد تداولية تتمثل في المقاصد التربوية، هي التي تحدد الصيغة المناسبة من حيث التذكير والتأنيث. مما يبين أن القرآن الكريم لم يتقيد بالقواعد الصرفية والتركيبية في المطابقة من حيث التذكير والتأنيث، وإنما سلك نهجا مقاصديا، يهدف إلى التبليغ والبيان والإقناع، وحمل المتلقي على التجاوب مع الخطاب القرآني، وهذا عنصر مهم يمثل جانبا من جوانب تميز القرآن الكريم وفرادته، والمتمثل في موافقة النموذج العربي وخرقه في الآن نفسه.

12- إن المدخل لتدبر القرآن الكريم هو البنية التركيبية، فالقرآن الكريم يحتمل من المعاني بقدر ما يحتمل من المباني، ولذلك اتجهت عناية المفسرين إلى تحديد الإعرابات الممكنة للآيات القرآنية، لأنهم بصنيعهم ذلك يقيدون المعاني المطلقة

للقرآن الكريم بطريقة علمية وموضوعية . ويشكل المستوى التركيبي عاملاً مهماً من عوامل تماسك الخطاب القرآني، فالعلاقات التركيبية هي وشائج شكلية ناظمة لكل مكونات الخطاب القرآني من جهة، ومحددة معانيه من جهة أخرى، باعتبار المعنى الأساس يكمن في البنية التركيبية العميقة، التي يمكن الوصول إليها عن طريق دراسة البنية السطحية وما طرأ عليها من تحويرات، حيث الانتقال من المستوى الوصفي إلى المستوى التأويلي، بغية فهم الخطاب القرآني، واكتشاف آليات اتساقه وانسجامه. وقد استعمل المفسرون هذه التقنية منذ التفاسير الأولى لتحديد مراد الله تعالى من الخطاب القرآني من جهة، ولإدراك مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم من جهة أخرى .

-13 إن الظاهرة القرآنية ظاهرة مركبة لا تجد تأويلها في التعليقات الأحادية الجانب، مما يتطلب اللجوء إلى نظرة شمولية تستحضر كل العوامل الفاعلة في اتساق الخطاب القرآني وانسجامه، بحيث يشكل منظومة متكاملة، حيث تماسك الآيات والسور القرآنية بروابط لغوية، وموضوعية، ودلالية² .

يمثل القرآن الكريم أرقى صور البيان العربي، حيث تتأزر ألفاظه وتتألف معانيه في نسق محكم تتجلى فيه روعة الاتساق وجمال الانسجام، فلا تنفصل آية عن أخرى ، ولا يرد لفظ إلا في موضعه الذي يقتضيه السياق.